

داحس والغبراء

قصة قصيرة

◆ القاص / محمد حسن عمر

في كل مرة نتوكل فيها عن أحد الموكلين ندخل في دعواه أو نحرك شكواه، نتفق أولاً مع شخص الموكل أو أحد أقربائه ونذهب لدراسة القضية والأطلاع على وقائعها مما قد دون منها وعنها في محاضر التحقيق الأصولية بعد أن نكون قد أستمعنا الى ما يقوله الموكل (صاحب القضية متهماً كان أم مشتكياً)، ولكن في هذه القضية كان الأمر مختلفاً وكانت له أبعاد أخرى أكثر عمقاً من غيرها؛ ولعدة أسباب ربما أولها أن الموكل في هذه القضية كان من أقاربي المقربين، أي أن ما ساقوم به من دفاع هو واجبي متمثلاً بآكثر من جانب سواء من حيث القرابة أو الظهور بمظهر المحامي الذي لا يخسر في قضاياه أمام أقربائه، كانت هذه الدعوى حقاً حالة خاصة والتعامل معها كان بأساليب حذرة ومختلفة عن غيرها، وعلى أية حال مضت بنا مركبة حديثة الموديل من نوع التويوتا لاندكروزر (والتي أحلم بمثلها) وعلى طول الطريق والجماعة يسألون عن التفاصيل والأجراءات التي سنقوم بها وكيفية تحريكنا للشكوى باسم أحدهم، وأنا أشرح وأشرح حتى وصلنا الى المحكمة المقصودة والتي تبعد عن المدينة التي نسكنها حوالي نصف الساعة أو أكثر بقليل، فدخلنا الى باحة المحكمة وأخبرتهم بوجود أنتظارهم لحين دخولي الى القاضي المختص وتقديمي لعريضة الشكوى وبالفعل وبعد عدة إجراءات منها تدوين أفادات المشتكي وكيفية تعرضه للأهانة من قبل الفاعلين وبعدها دونت أفادات شهود الإثبات وإذا بنا نجد أن الطرف الآخر كان أيضاً قد أقام شكوى متقابلة ضد موكلينا وقد وجدناهم في ساحة المحكمة وأحسست بان الموقف أصبح شديد التوتر، خاصة أن كلا الطرفين هم من الأغنياء وأصحاب النفوذ، ووجهاء البلد وقد أنتظرت قرار القاضي المختص وكالمعتاد فما دامت هناك شكوى متقابلة فالقاضي لن يامر بتوقيف الطرفين خاصة أنها قضية جنحة أقصى عقوبة فيها قد تصل الى الحبس البسيط أو الغرامة ومن الناحية العملية والواقعية فإن الحكم وبعد

تبين بأن موكليّ هم المعتدين وبما لا يقبل الشك حتى أن أحد الضباط أشار إليّ بعينيه وهو يلمح لي بالذهاب معه والتخلص من هذا الموقف إلا أنني اعتذرت وقلت له لا أستطيع فالأمر أصعب مما تتصور فكيف يمكنني أن أترك موكليّ فهم ليسوا مجرد موكلين وإنما هم أولاد عمومة وما الذي سيقوله أهل القرية عني لا بل العشيرة كلها وعلي أن أفكر الف مرة قبل أن أخطو خطوة واحدة، قد تجعلني أصبح على كل لسان وأنبذ من أهلي وعشيرتي، إذا انسحبت ووجدت نفسي ومن دون



الإثبات يكون عادة بالغرامة فقط، فامر القاضي بإطلاق سراح كلا الطرفين بكفالات شخصية ضامنة للنتيجة وما لبثت حتى أخبرت موكليّ بفحوى هذا القرار حتى ثارت ثائرتهم فأخبرتهم وحذرتهم أياكم ثم أياكم أن تخطوا فترتكبوا فعلاً قد تندمون عليه وذكّرتهم بالعاقبة والعقاب المنتظر وأنهم سيضعون أنفسهم في موقف لن يحسدوا عليه مخالفين أحكام القانون فطمأنوني بأنهم لن يفعلوا شيئاً وبعد زهابنا إلى مركز الشرطة وإذا بي أتفاجأ بسيارة أخرى من السيارات التي تعود لأولاد العمومة وفيها مجموعة من الشباب المقربين لموكليّ قد أنضمت إلينا فعلمت بأن الأمر قد تخطى حده وأن مكروهاً سيقع لا محال وأن هذا الأمر قد نُجّر لبيل، عموماً دخلت إلى غرفة ضابط مركز الشرطة المختص وكان صديقاً قديماً وقد وجدت ضباط آخرين من المعارف وبعد إلقاء التحية والسؤال عن الحال والأحوال وتذكر الأيام الخوالي وإذا بنا نفاجأ ومن خلال النظر من النافذة المُطلّة على الشارع العام حيث أن موكليّ كانوا واقفين هناك وعند وصول سيارة الطرف الآخر إلى ذات المركز لجلب إضبارة القضية الخاصة بهم وإذا بأحد من موكلينا مع اثنين آخرين من جماعته ينقضون على الرجلين ومن جميع الجهات وهما في مركبتهم وتبدأ اللكمات والضربات من كل الجهات وأنا أقف مذهولاً أنظر إلى ذلك المنظر الذي لم أر أسخف منه إطلاقاً وعلى الفور هرع الضباط إلى مكان الحادث ليُنْهوا ويوقفوا تلك المشاجرة وألقوا القبض على موكلينا كلهم وتم جلب الشخصين المجنى عليهما إلى الغرفة التي كنت فيها وأنا أنظر متعجباً من هذا الموقف الغريب بالنسبة لي وهنا أنتظرت لا أعلم ماذا أنا فاعل؟ وكم مرة فكرت بالذهاب والخروج مباشرة من هذا الموقف الصعب حتى إنني بدأت أتصعب عرقاً، خجلاً من معارفي من الضباط فقد

أشعر بأن الطرف الآخر يعدون العدة للانتقام منا (فالنار ما زالت حامية) ولن يحترموا كوننا محامين وفي هذه الأثناء كانت قد بقيت مركبة واحدة لنا في مركز الشرطة فكلفنا الشخص الثالث بقيادتها وكان قريبي المحامي الآخر معه مركبته الخاصة ثم أخبرنا ضابط الشرطة المختص بأنهم سيرسلون معنا مركبة بمعية ضابط حماية لنا واتفقنا على أن لا نفارق بعضنا بعضاً وخلفنا مركبة البوليس المدججة بأفراد الشرطة المسلحين وبالفعل بدأنا ومضينا نحو المدينة وتجاوزنا نصف المسافة المحددة حتى لاحظنا مركبة من نوع لاندكروزر سوداء واقفة في منتصف الطريق مليئة بثلة من الشباب وفور اجتيازنا إياهم بدأت تلاحقنا وفي لحظة وجدنا تلك المركبة خلفنا مباشرة وبدأت النظر إلى من فيها فتذكرت بعضهم، أنهم ذات الشبان الذين كانوا يحومون حول مخفر الشرطة وعلمنا بأنهم قد خططوا لاعتراضنا وإيذاننا، ويحاولون الآن أن يجتازونا لإيقافنا ولكن أين مركبة الشرطة ؟ لقد أخفت، هنا بدأت تساورنا الشكوك ونحن نتحدث حول هذا الأمر اقتربنا من مفرزة لشرطة المرور فأخبرنا ضابط المفرزة بأن هناك جماعة تلاحقنا وهم خلفنا بعدة سيارات ورجوناه أن يؤخرهم لحين تمكننا من الوصول الى المدينة والخروج من دائرة الخطر وبالفعل بعد أن عبرنا تلك المفرزة رأيت أن ضابط المرور قد أستوقفهم وحاول تأخيرهم وبهذه الطريقة وصلنا بأمان الى دورنا ولكن لم تمر إلا ساعات معدودة حتى عدنا وتجمعنا مرة أخرى في دار أبن عمنا الأكبر للتشاور عن كيفية حل هذه المسألة وهكذا دخلنا أنا وشقيقي وإذا بنا نرى أن العشرات من الرجال قد تجمعوا في الممرات وفي حديقة الدار وفنائها وعلى سطحها ورأيت أن بعضهم كانوا مسلحين بالرشاشات والبنادق والمسدسات لا بل أن مديرية

إرادتي في الموقع الذي لم أكن أتصور أن أكون فيه أبداً ملتزماً بقيود العشيرة والأهل والقرابة وأنا الذي طالما كتب ونادى بنبذ العادات العشائرية والتحرر من قيودها ألا أنها تبدو أكبر مما نريد أو نعتقد، على الرغم من وقوفي ولأكثر من ساعتين في موقف المتفرج ليس إلا، على أية حال بدأ الضابط المختص بإعداد إضبارة جديدة بجريمة الاعتداء المشهود والذي وقع أمام ناظرينا وبتدوين إفادات المشتكين وقبل عرض الأمر على القاضي المختص حاول الرجل إجراء الصلح بين الطرفين وقض النزاع وإيقافه عند ذلك الحد ألا أن المجنى عليهم أصروا على أنهم سينتقمون ويردو الصاع صاعين وبعدها يتم الصلح وهي فلسفة غريبة فالناس لا ترضى بما تفرضه القوانين بل لا بد أن تأخذ حقها بيدها ، هكذا أستمر الأمر وعرض على القاضي المختص فقرر توقيف موكلينا والى إشعار آخر وفي هذه الأثناء جاء شخصين آخرين من جماعتنا وكان أحدهم محامي ايضاً فاتصلنا بوجهاء العائلة لأمرين أساسيين أولهما البدء بجمع ولم شمل كبار أهالي القرية ورجالها في دار أحدهم لاتخاذ الحيطة والحذر من أي رد فعل معاكس من الطرف الآخر وتانيهما محاولة وضع الالية المطلوبة للبدء بإجراءات المصالحة العشائرية مع وجهاء الطرف الآخر قبل أن يتفاقم الأمر ويخرج عن السيطرة فتراق الدماء ولربما تبدأ سلسلة من حروب داحس والغبراء، حقاً هذه الأمور وهذه الإجراءات التي لم أعشها يوماً ولم أشاهد مثلها إلا في أفلام هوليوود الأمريكية عن حروب المافيا وكيف أن العوائل الأيطالية كان أبنائها يحمونها ضد أية عائلة أخرى وهنا أدركنا الوقت الى العصر وبدأنا نلاحظ تجمع شباب من الطرف الآخر عند باب مركز الشرطة وهم يُرشقوننا بنظرات عدائية فأخبرت قريبي المحامي الآخر بأن علينا أن نُسرع بالمغادرة لأنني بدأت

ووأدها فتم الصلح على تنازل الطرفين عن شكواهما مقابل تعويض عيني مناسب للطرف المتضرر وكفى الله المؤمنين شر القتال وُعدنا نحن بدورنا من ساحة المعركة مهلهلين بانتصاراتنا ومظهريين للنساء بسالة موقفنا وأتينا كنا على الحق تالله حينما أذكر هذه المواقف كأنني أمام أحداث مسلسل الزير سالم وما نحن منهم ببعيدين فالعقلية ذاتها مشتركة ولم يتغير من الأمر سوى المظاهر والملابس والناس والأجناس!

الشرطة علمت بالأمر فارسلت قوة للحماية تركزت حول تلك الفروع والأزقة ومن على مفترقات الطرق لتفتيش المارة وذلك دراءً لأية ردود أفعال أو محاولات انتقامية .

وبقيتنا على هذا الحال وبدأت النقاشات وأصبح الخبر اليقين عن الأمر كله عند صاحبي ممن كانا معي في هذه المحنة، اللذان بدءا بإظهار بطولتهما وكيف أنهما تصرفا بنفاذ بصيرتهم وحدة ذكائهم وتخلصا من الشبان الذين حاولوا اللحاق بنا وبقيت أنا ساكت لا يهمني ما يسردانه من بطولات وقصص لا بل أن البعض من الحضور لمَّح أليّ مُعاتباً ومظهراً استياءه لعدم مشاركتي في الشجار الذي كان، والزود عن أبناء العمومة منطلقين من المفهوم المعاكس (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) متناسين أن العمل بهذا المبدأ هو الذي أوصلنا إلى ما نحن عليه من تخلف وتأخر عن شعوب العالم وكاننا في شريعة الغاب وكان البطولة أن تقف مع صاحبك وأخيك وأبناء عمومتك حتى عند ارتكابهم للظلم ، هذا هو دين الطغاة متناسين أن رسول الله محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) قد ذكر هذا الكلام في حديثه لصحابته حينما ذكرهم بهذا القول فتعجبوا وقالوا (بحسب المعنى) لقد علمنا يارسول الله كيف ننصر أخانا المظلوم ولكن كيف ننصره وهو ظالم فأجابهم خاتم الأنبياء محمد عليه السلام بأن نصرة الإنسان لأخيه الظالم بأن يمنعه عن ارتكاب الظلم فاي تفسير عظيم ومعنى شريف يضعه رسول الله أمام البشرية جمعاء .

عموماً أننا لا نُثريء أنفسنا كل البراءة من هذه النقيصة ! لأننا بين حجر الرحي فاما نتحمل جهالة العشيرة أو الإقصاء عن حمايتها.

عود على بدء . وفي ساعة متأخرة من الليل وبعد أن توسط المصلحين من وجهاء العشيرة بين الطرفين والحمد لله تمكنا من إخمد نار الفتنة

